

مجانين ... !

للأستاذ علي الطاطاوي

[تعليق غني ما كتبه صديق السبيل الأستاذ كامل الشكيلي في العدد ١٧٦ من الرسالة عن « نيوتن والوزير المهمل » مع تحياتي وأشراقي إليه ...]
« على »

إذا رأيتم رجلاً يمشي في الطريق منهوش الشمر ، شارد النظر ، قد لبس معطفه على القفا ، ومشى على غير هدى ... قلم إنه (مجنون) ... وقد يكون (مجنوناً) ، ولكنه قد يكون فيلسوفاً ... أو شاعراً ... أو رياضياً ... !

وإذا سمعتم أن رجلاً لا يفرق بين السراويل والقميص ، ولا بين الجمعة والخميس ، قلم إنه « مجنون » ... ولكن (أناطول فرانس) ، والهدية على الراوي (جان جاك بروسون) دعى إلى وليمة يوم الأحد ، فذهب يوم السبت ولبت ينتظر متعجباً من تأخر الغداء ، ولبت ربة الدار تنظر متعجبة من هذه الزيارة المفاجئة ، ثم لم يرض أن يصدق أنه يوم السبت ... فهل كان (أناطول) نابغة قومه في البلاغة وباقعة العصر مجنوناً ؟ !

وإذا شاهدتم رجلاً يمتلئ في كوخ ، أو ينفرد في غار ، لا يقبل على الدنيا ، ولا يكلم الناس قلم إنه (مجنون) ، ولكن (الغزالي) عاف الدنيا وقد اجتمعت له ، والمجد وقد أقبل عليه ، والرياسة وقد آتته منقاداً نسي إليه ، وحبس نفسه في أصل منارة الجامع الأموي في دمشق ، فهل كان (الغزالي) حجة الإسلام وعلم الأعلام مجنوناً ؟ !

وإذا بلغكم أن إنساناً نسي اسمه قلم إنه (مجنون) ، ولكن (الجاحظ) نسي كنيته وطلق يسأل عنها حتى جاءه ابن حلال بإبشارها ، فقال له : أنت أبو عثمان ؟ فهل كان (الجاحظ) عبقري الأدب ، وإسان العرب مجنوناً ؟

ونيوتن ... وقد كانت في داره قطة ، كلما أغلق عليه باب ، وقعد إلى كتبه ومباحثه ، أقبلت تُخَرِّمُ الباب وتُخَشِّش بأظفارها فتشمله عن عمله حتى يقوم فيفتح لها ، فلما طال عليه

الأمر كدّ دهنه ، وأطال بحثه ، فاعتدى إلى المَخْلَص ... ففتح في أسفل الباب فتحة تمرّ منها فاستراح بذلك من شرها ... ثم ولد لها ثلاث قطّيعات وفتح لكل واحدة منها فتحة ... لم يستطع هذا العقل الكبير الذي وسع قانون الجاذبية أن يتّسع لحقيقة صغيرة : هي أن الفتحة الواحدة تكن القطعة الأم وأولادها ! وآسبير ... وقد كانت تعرض له مسائل في الطريق ، فلا يجد فلماً لها وورقاً ، فجعل معه حوَّاراً^(١) ، فكلمها عرضت له مسألة ، ورأى جداراً أسود ، وقف نخط عليه ، فرأى صرّة عربية سوداء واقفة ، فجعل يكتب عليها أرقامه ورموزه ، واستغرق فيها ، حتى سارت العربية ، فجعل يعدو خلفها وحوَّارُه بيده ، وهو لا يدري ما يصنع !

وهنري بوانكاريه ... وقد دعا قوماً إلى وليمة في داره ، وضرب لها الساعة السابعة موعداً ، فلما حل الموعد وجاء القوم ، كان مشغولاً ... فدعوه فلم يسمع ، وألحوا عليه فلم ينتبه ، وكانوا يمرقون شذوذاً ، فأكلوا وانصرفوا ... وقام بعد ساعتين فأمر غرفة المائدة ، فرأى الصحون الفارغة والملاعق المستعملة وبقايا الطعام ، فجعل يفكر : هل أكل أم هو لم يأكل ؟ ثم غلب على ظنه أنه أكل فعاد إلى عمله !

وأمرالله أفندي .. العالم التركي الشهير صاحب المَعْلَمَةِ التركية^(٢) ، وقد كان يركب البحر كل يوم ما بين داره في (اسكدار) وعمله في (اسطانبول) ، فركب يوماً وكان إلى جنبه موظف كبير في السفارة البريطانية ، وكان في جيبه فستق حلبي ، وكان (أمرالله أفندي) مشغول الفكر ، فجأل بيده وهو لا يشعر ، فسقطت في جيب البريطاني ووقعت على الفستق فأخرج منه فأكل ، وظنّ الرجل أنه مزاح ، فسكت ، ولكن الشيخ عاد وأوغل في الأكل حتى كاد يستنفد الفستق كله ، وكان الفستق مزدهجاً ما فيه مفر للبريطاني من هذه الورطة ، فأحب أن يتلطّف بالشيخ حتى يكف ، فسأله : كيف وجدت الفستق ؟ قال : « عال ! » وعاد إلى تفكيره وأكله ؛ فقال له : ولكن ليس في جوار الدار مثله أشتريه للأولاد ، وإذا دخلت عليهم من

(١) الحوار : الطباير لا بأس بمرئيتها لأن التحوير هو التبييض .

(٢) أي دائرة المعارف ، وبالهمزة - وهما (معلمان) على وزن (معجم) .

وصديقنا الكبير سامى بك العظيم مفتش المدلية العام ، وقد حدثني من فمه أنه دعا (فلاناً) وكان رئيساً للوزراء إلى الغداء في داره في أقصى المهاجرين ، فلما كان اليوم الموعود جاء الرئيس بسيارته إلى باب المنزل ، فنزل منها وصرف السائق لئلا يطول عليه الانتظار ، واجتاز الحديقة الممتدة ، وصعد الدرج العالي ، وقرع الباب ، فلم يرد أحد عليه ، فماد إلى البلدة ماشياً في شمس الهجرة من آب^(١) . أما سامى بك ، فقد نسي الوعد ، ولم يكن في الدار أحد ، لأن أسرته في القاهرة ، فذهب فتغدى في المطعم وصديقنا الأديب العالم الراوية عز الدين التنوخي ، وقد دعا للبحث في إعداد مهرجان الثنائي من ستين جمهرة من أدباء البلد إلى المجمع العلمي يوم كان سكرتيه ، فلما جاؤوا وجدوا المجمع مغلق الباب ، فذهب بعضهم إلى دار الأستاذ يسأل عنه خشية أن يكون به مرض ، وإذا هو يشتمل بتحقيق كتاب أبي الطيب اللغوي ، وإذا هو يحذهم عن الكتاب ، أما حكاية الدعوة ، فقد نسيها من أسامها !

أفكان هؤلاء ، وفيهم كل عبقرى عَلم ، وكل نابضة إمام ... أكانوا كلهم مجانين ؟
أما في رأى الناس ، فنَسَم !
ذلك لأن القافلة تمشي ، فمن سارها عدّه أهلها عاقلاً ، ومن تقدم عنها يسلك طريقاً جديداً قد يكون أقرب وأمن ، عدّوه مجنوناً ، كن تأخر عنها لتيه في مجاهل الصحراء !
لكن ذاك جنون المبقرية ، وهذا جنون المارستان !
إن المبقرى شغل بالعلم فكره كله ، فلم يبق منه شيء لفهم الحياة ، فصار عند أهلها مجنوناً !
وبين جنون المبقرية وجنون المارستان نوع ثالث ، ألا وهو جنون الغرام :
وكل الناس مجنون ولكن على قدر الهوى اختلف الجنون والهوى ... يا ويح الهوى ، ما أكثر شعابه ، وما أضلّ أوديته ؟ !

الهوى ... ومنذا الذي لم يته في واد من أوديته ، ولم يسلك شعباً من شعابه ؟

(١) أغسطس

غير فستق بكوا ... قال الشيخ : « عجيب » ! وعاد إلى الأكل والتفكير ، فقال له : أفلا تنكركم بإبقاء شيء . لهم ؟ قال : « بلى ، بكل امتنان » ، وأخرج طائفة من الفستق فدفعها إلى الإسكندري وأكل الباقي !

وقد وُلّى وزارة المعارف وأعطى سيارة ، فكان كما بلغت به السيارة المنزل ، وفتح له السائق الباب ، أخرج كيسه وسأله : كم تريد ؟ فيقول له : يا سيدي هذه السيارة لمالك ، فيتذكر ويقول : طيب !

وقد سأله امرأته مرة ، وكان يعنى أمام داره : أين دار وزير المعارف يا سيدي ؟ فقال لها : ومن هو وزير المعارف الآن ؟ وصديقنا اللغوي العراقي عبد المسيح ودير^(١) ... وقد دخل مرة غرفة غير غرفته في وزارة الدفاع ، وكان (طالب ذكره) من كبار موظفيها ، فرأى أنها على خلاف ما كان يعمد ، فغضب ودعا الفراش ، وقال له : حول هذه المنضدة ، انقل هذا الهاتف^(٢) ، اعمل كذا ، افعل ذاك ... فلما استوت له كإريد ، نظر فقال : أعذه غرفتي ؟ ! قال : لا يا سيدي ، فانتقل إلى غرفته ! وكنا نرويه أنا وأنور ، فدعا لنا مرة بشاي وتدفق بالحديث ، وهو يشرب كأسه ، فلما فرغت ، وضما وتناول كأس الأستاذ المطار فشربها ، ثم تَلَّتْ بكأسي ، فلما جاء الفراش يأخذ الكؤوس ، قال : سأتكم بالله ، هل تريدون كأساً أخرى ؟ ! وشيخ الشام ومرى الجليل الشيخ طاهر الجزائري ، وقد حدثني الشيخ قائم القاسمي أنهم احتالوا عليه حتى اشتروا له جبة جديدة وألبسوه إياها ، وذهبوا به إلى دمر فجلسوا حول البركة العظيمة في منزل الأمير عمر ، وكان في المجلس الشيخ عبد الرزاق البيطار ، والشيخ جمال الدين القاسمي ، وجلة العلماء ، فما كان من الشيخ طاهر إلا أن قام فترع الجبة ، وجعل يغمسها في البركة ، ثم يدهكها بالتراب ، ثم يغمسها ، ثم علقها على عنق حتى جفت وتكرّشت فلبسها وقال : الآن استرحت ، إن الجبة الجديدة تشغل فكر صاحبها ، أما العتيقة فإنه لا يبالي بها فينصرف إلى تفكيره ...

(١) وخبرت أنه وضع كتاباً في ذمور العلماء ولم أوه ، وأشكر أحمد تلاميذي في العراق إذا نكروهم فأمداهم إلى
(٢) لا يعرف النقون في الشام إلا بالهاتف .

رحمة الله على روحه ، ثم رأيت وجهه الفرنسي الأصيل في يوم كنت فيه أماً أبصاً مجنوناً يفكر بأعصابه لا بدماغه ، ويرى الدنيا كلها خلوة من خلوات الحب ، والحياة قصة من قصص الغرام ، والوجود كله وجه فتاة فتاة ... وقابل الله الصبا وحافات الصبا ... عرفته يومئذ قرأته (مجنون) بطلا من أبطال الحب ، وشهيداً من شهداء العاطفة ، ولكنني عدت إليه اليوم ، وقد عقلت ، أو كدت ، فإذا هو ... أعوذ بالله !

يقول المجانين : إن الحب يطهر النفوس ويتركبها ، ويوسع آفاقها وينميها ، ويسمو بها ويمليها ، فتعالوا اسمعوا حديث هذا الحب الفرنسي ما صنع به الغرام :

هجر أباه وتبرأ منه ، وأنكر حق أبوته ... ثم ذهب أخوه إلى المركة وخاف أن يسقط عن سرجه ، فبث إليه يسأله عن سرج جديد ، فلم يرد عليه ، لأنه يحتاج إلى المال لينفق فيه بما هو أهم ، يريد أن يستأجر به مقعداً في المرقص يرى منه وجه ليلاه ، أي ماجدولينته ، فسقط أخوه عن سرجه ، ومات في المركة ... ثم فارق أباه وبقي في العراء ، فأحسن إليه واحد من أقربائه ، وأعطاه ما يبتغي من المال ، فكانت مكافأته إياه على إحسانه أن سرق ماله ، ودفع في صدره ، فميجل موته ...

فعل ذلك كله من أجل امرأة ، أضاع كل شيء لييجدها ، ولكنها أعرضت عنه ، ومات إلى غيره ... إلى صديقه الذي قاسمه خبره ، وشاركه فراشه ، صديقه الذي سلبه سريره من تحت ، فباعه لينفق ثمنه على مآربه وهواه ، وهذا المجنون المنفل لا يحس ولا يدري ، لأن الحب أعمى وأصم . وهل رأيت محباً له بصر ؟ أعرضت عنه ، ولها الحق في الإعراض ... هل تزوج مجنوناً ؟ إن الزواج إذا بني على هذا الجنون الذي يسميه أصحابه « حباً » ، صار البيت من بعده مستنق مجاذيب ، ومارستاناً من المارستانات ! !

تزوجت بغيره ، فذهب ينتزعها من زوجها الشرعي ، ويرى أنه أحق بها ، لأن اسمه واسمها منقوشان على شجرة زيزفون ... ما شاء الله كان ! إنك تستطيع أن تأخذ المرأة من بين ذراعي زوجها ، لأنك حفرت اسمها مع اسمك على شجرة ... اسمعوا يا عقلاء (وأين العقلاء) شريعة المجانين ... اسمعوا منطلق الحب !

إن من لم يهوَ التمدد الحسان ، هوى الرياض والجنان ، أو الأصغر الرنان ، ومن لم تفتنه العيون التي في طرفها حور ، فتنته الشهرة واستهواه الجاه ... كل الناس مجنون ، ولكن أخطر المجانين : مجانين الهوى !

وهل في الدنيا أشد جنوناً ممن يفكر الحياة وبمرض عنها ، لا يريد أن يبصر وجهها ، ويراعا سوداء في عينيه لا تنيرها الشمس ولا يضيئها القمر ، كل ذلك لأن (امرأة) لم تمنحه قبلة ... يا حفيظ ! اللهم إنا نسألك السلامة !

أما عرقم مجنون « ليلي » ؟ هذا الذي زهد في المجد والرفاهية والعلم والمال والجنة ... واجتوى حياة البشر ، وهام مع الوحش في البرية ، وملاً أيامه حسرة وكآبة وغماً ، لأن ... لأن الله خلق عيني ليلي سوداوين فتانتين ، وجعل أنفها رقيقاً دقيقاً ، وبرأ فيها أحمر كالوردة ، حلواً كالسكر ، صغيراً لا يعرف إلا لغة القبل ... نعم ، إنه « جن » لأن الله لم يخلق ليلي هذه قبيحة شوها . لقد كان يعيش قبل أن يعرف ليلي كما كان يعيش سائر أبناء آدم ، وكانت حياته كاملة سعيدة من غير ليلي ، فاشتغى يوماً أن يدنو من امرأة كما يشتغى كل رجل ، فقادته المصادفة إلى ليلي ، فأرادها ... فلم يصل إليها « لجن » ... ولو كان عاقلاً رأى في كل امرأة في الدنيا غناء من ليلي ... إن مشكله مثل رجل أراد أن يدخل بيتاً له مئة باب ، فطرق باباً منها وعالجه ، فلم يفتح له ، فوقف يبكي وينتحب ، شوقاً إلى الدخول ، ويضرب الجدار برأسه ، والأبواب التهمة والتسمون مفتحة أمامه !

وإن لكل رجل (ليلي) :

كل ينشئ على ليله متخذاً ليلي من الناس أو إيلي من الخشب فإن فاته ليلي الناس أجزأت عنها ليلي الخشب ، فما بال نيس ؟ أو لم يخلق الله في النساء جملة إلا ليلاه ؟ أولست المصادفة هي التي ألقتها بين يديه ، ولو كان رأى سمدي أو سلمى ، لكان مجنون سلمى أو سمدي ؟

وهذا مجنون آخر هو ستيفن مجنون ماجدولين : ولقد عرفته منذ نقله إلى الشرق إمام الكاثوليك المنفلوطي

إلى عابر سبيل لا يعرفه ... فما أكرم هؤلاء المشاق الذين يمنحون
نروبتهم كلها إلى من لا يعرفون ، ويضن الواحد منهم على أخيه
بشمن سراج لفرسه ، ويتركه يموت في المعركة ... !
نم بأنيه المال الوفير ، فينفقه في أتفه الأمور وأحط الرذائل ،
يستأجر مقاصير السرح كلها ، ويرى الرواية وحده ... لما ذا ؟
ليفيظ المرأة التي أحبها فتزوجت بغيره ، لأنها تريد أن يكون
زوجها رجلا مثل الرجال ، لا امرأة لها شاربان ولحية ولا عقل لها ،
نم يترق ستيقن في فضائل الحب ، فينتهي إلى النصب والنهب
من حانة ... ويعلن جنونه ليهدم به الحياة البشرية ، فيزعم أن
الحب أقدس الواجبات ، والزواج شر الرذائل ، ثم تختم هذه
الحياة النيلة ... السامية ... بجرعة القتل !
هذا هو مجنون ماجدولين ، وذاك مجنون ليلى ... أما سائر
المجانين ، فهم بقية الماشقين !

فإذا كان في الدنيا جنون عبقرية ، وجنون مارستان ، فإن
جنون الميوسى هو جنون الإجرام ، لا سيما إذا كان عوى على
الطريقة الفرنسية ...
فيا أيها الشباب الصغار ! إذا لم يكن يد من الجنون ،
فلنجن بالمال والكارم والعلم والفن ، أولئك المارستان ...
أما المرأة ، فصدقوني إذا قلت لكم : إنها لا تستحق أن
يحن إليها أحد ! !

علي الطنطاري

(دمشق)

هذا هو الحب الفرنسي : تفريط بحق الأسرة ، واستهانة
بواجبات الشرف والدين ، واستئثار قائل يحجو من الحياة اسمى
فضائلها ، لهذه اللذة التي بناها ، ويفقر النفس المأمرة بالإيمان
والفطنة والمجد ، ولا يبقى فيها إلا صورة الحبيب ، يراه الماشق
في الأفق إذا نظر إليه والشمس واقفة لاوداع ، وفي السماء إذا
تأمل فيها ونجومها تتوقد في هدأة الليل ، وفي صفحة الماء والروض
الهيح ، وفي كل كتاب يقرؤه ، ومشهد يراه :
أريد لأتسى ذكرها فكأنما تمثل لي ليسلى بكل سبيل
فيا رحمتا هؤلاء المجانين ! إنهم عمنى لا يبصرون من الدنيا
إلا وجه امرأة واحدة ... صم لا يسمعون إلا صوتها ... بئله
لا يشغلون إلا بها ... مجرمون لا يبالون بكل رذيلة إذا أوصلتهم
إليها ... أذلاء لأنهم فقدوا الرجولة والكرامة ، وغدا النسل
الأعلى لهم أن يطعموا هذه الرعناء الطائشة ... لأن لها عيناً بلون
السماء وزرقة البحر ...

هذا هو الحب يا أيها الشباب بالصغار !

كل عاشق هو (ستيفن) ، ولو تناءت الديار ، وتباعدت
الأزمان ، فاقروا سيرة ستيفن تقرأوا سيرة كل عاشق ...
لقد ارتضى أن يخسر كل شيء ، ليربح ماجدولين ، فلما خسرها
لم يبق له شيء ... لقد غدا مجنوناً ... وهل يمكن أن يكون
عجب عاقلاً ؟ ها هو ذا يحرق الورقة المالية التي لا يملك غيرها ...
ليقرأ على ضيائها رسالة الشيطانة ... أعنى الحبيبة ، ويبقى من
بعدها طاوياً يتضور جوعاً ، لا يدري أن أحلام الحب وحماقته
لا تملأ المعدة الفارغة ، وأن الرغبة الواحد أتمن عند الجائع من
كل ما في الأرض من ليليات وماجدولينات ... لقد غدا
نائماً يدور في السبل والطرق ... وينام حيث يدركه المنام ...
لقد صير الحب موجوداً كالعدوم ... صار عضواً من الأمة
أشلى لا ينفع ولا يضر ، بل إنه يضر ولا ينفع ! !
لقد سد في وجهه طرق المجد ، وحجب عن باصريه نور
الشمس ، فلم يبق فيه فائدة لنفسه ولا للناس ، بل لقد صار مهزأة
وغدا مسخرة ... وكذلك يكون الماشقون !

ويقال هذا المجنون خمسة عشر ألفاً يستطيع أن يصنع بها
الجلال ، ويرفع بها نفسه ولأتمته مجدداً ... فما ذا صنع بها ؟ دفعها

بصير قريباً :

كتب وشخصيات

للاستاذ سيد قطب